المحاضرة الثامنة: المنهج الهندسي عند سبينوزا

أخذت الرياضيات خلال العصر الحديث مكانة مهمة، واستخدمت في نطاق واسع للتعبير عن الخصائص العلمية، وفي التنبؤ بالحوادث المستقبلية، فأصبح التعبير عن الظواهر الفزيائية بأسلوب رياضي، وأصبحت المعادلات والمبادئ الرياضية من الأمور التي ينبغي على العالم أن يلتزم بها، الشيء الذي أدّى إلى نجاح "الميكانيكا الكلاسيكية"، وسيكون لهذه الأمور تأثيرا في الميدان الفلسفة حيث أخذت بتلك الدّقة التي تقدمها العلوم، الرياضية في صياغة الأفكار الفلسفية. وسيظهر في نفس الفترة توجه شبه عام للخطاب الفلسفي، حيث تمّ اللجوء إلى الأسلوب الرياضي المتميز بالدقة والصرامة، والذي يبتعد عن الكتابة المسترسلة والأساليب اللغوية. وقد اقتفى سبينوزا فلاسفة القرن السابع عشر في انتهاج طريقة خاصة في البحث، وهي الطريقة الاستنباطية الرياضية لأن الرياضيات استهوته كما استهوت ديكارت وباسكال ومالبرانش. اعتقد سبينوزا بأن الرياضيات هي المفتاح الأمثل لحل أسرار الكون واكتشاف قوانينه، لذلك اتخذ من الهندسة نموذجا بنى على غراره فلسفته. وبخصوص هذا التصور، السؤال الذي نطرحه: ما الذي جعل سبينوزا يتبنى المنهج الهندسي لتأسيس فلسفته وعرضها؟

1/- دواعي اعتماد سبينوزا على المنهج الهندسي في فلسفته:

هناك العديد من المبررات للجوء سبينوزا لاستخدام المنهج الهندسي لعرض قضاياه الفلسفية، نجد:

أ- أول تبرير لاستخدام هذا المنهج هو أنَّه أفضل وسيلة للتعبير عن أفكار فيلسوف عن الأفكار بدقة كاملة، وعن فلسفته بصفة عامة: " وهو يستخدم المنهج الاستدلالي الهندسي، مثل ديكارت وهوبس وليبنتز، لا من باب الاعجاب والتفضيل، ولكن لأن فلسفته تتطلب هذا المنهج بكل ما في كلمة تتطلب من معانّ، بمعنى أن معيار الصدق واليقين الذي تطرحه فلسفته، ما كان من الممكن أن تنهض على أمره فلسفته مالم يستخدم هذا المنهج

الاستدلالي. وفي رأيه أن القضية لا يظهر صدقها ويقينها، إلا إذا عرضت بوصفها جزءا من نظام استدلالي عام، كل قضية فيه تتصل بالقضايا الأخرى، وترتبط بها"[1].

ب- أراد أن يتجنب الأسلوب البلاغي والإطناب الذي يرتبط عادةً بالكتابة المسترسلة، وأن يكتب على نحوٍ يوصله مباشرةً إلى الحقائق، ويضمن لقارئه أقل قدر ممكن من المؤثرات الانفعالية التي تُبعد ذهنه عن الموضوع الحقيقي.

ج- أن استخدام سبينوزا للمنهج الهندسي لم يكن أمرا عارضا أو اختياريا، هو أن الرأي القائل إن المنهج الرياضي يستبعد الطريقة الغائية في التفكير، وأنه يتفق مع روح المعقولية والإيمان بالعلم السائد في فلسفة سبينوزا، ويتضمن عدوة إلى التفكير الدقيق واستبعاد الغائية والخيال المؤدي إلى التشبيه بالإنسان[2].

د- وربما انتهاجه المنهج الهندسي وانحيازه الرياضي، من حيث أنها لغة قد بلغت ألفاظها درجة عالية من الدقة والوضوح، وخلت من كل غموض، حتى لتبدو في دقتها كأنها فرع من فروع الرياضيات، وهما ندرك الترابط والتناغم بين الشكل والمحتوى عند سبينوزا، فلقد انتقى لفلسفته ما يناسبها من أدوات، وما يجعل فلسفته بيّنة واضحة القصد جلية الغاية[3].

2/- ماهية المنهج الهندسي عند سبينوزا:

يحدّد فؤاد زكريا ماهية المنهج الهندسي، عند حديثه عن وسائل التخفي في هذا المنهج، فهو يرى أن هذا المنهج هو أسلوب في الكتابة وعرض القضايا يشتمل على طريقتين:

أ- **الطريقة الأولى**، هي طريقة استخدام القضايا والبراهين، والنتائج، حيث يستطيع الفيلسوف أن ينتقل بالقارئ تدريجيا إلى إثبات أعقد قضاياه، دون أن يضطر للتصريح بهذه

---

[1]- عبد المنعم الحفني، الموسوعة الفلسفية، دار ابن زيدون، بيروت، مكتبة مدبولي، القاهرة، بدون تاريخ، ص238.

[2]- باروخ سبينوزا، علم الأخلاق، ترجمة جلال الدين سعيد، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، 2009، ص ص 38-39.

[3]- عبد المنعم الحفني، الموسوعة الفلسفية، مرجع سابق، ص238.

الآراء بطريقة مباشرة، فهو مثلا يستطيع أن يوزع فكرته بين قضايا متناثرة، ثم يحيل القارئ إلى هذه القضايا التي تفصل بينها صفحات عديدة، وعن طريق التأليف بين كل هذا يصل القارئ إلى الفكرة، التي يريدها الكاتب أو الفيلسوف.

ب-الطريقة الثانية، فهي طريقة المعادلات، التي يتيحها المنهج الهندسي أو الرياضي يوجه عام...ففي المعادلات أن يفهمه القارئ بأن معنى يشاء، ثم طرف آخر، هو الدلالة الحقيقية لهذا الأمر، وهي دلالة كثيرا ما تكون عظيمة التعقيد. ومن خلال هذه الطريقة يمكن عرض أجرأ الآراء وأبعدها عن الألوف، لأنه لن يفهم حقيقتها إلا ذوي العقول النيرة من المتخصصين في ذات المجال، الذي تناولته القضايا المعروضة من خلال المنهج [1].

اتباع سبينوزا لذلك المنهج الهندسي، وتحديدا للطريقة الثانية استطاع استخدام مجموعة من التعبيرات التقليدية، التي سادت عصره، كإطاعة الأوامر الإلهية، الحب الإلهي، تقوى الله، والعناية الإلهية، وغيرها من التعبيرات، ولكن بمعايير جديدة، وبتركيبات توحي للقارئ العادي بأنها لازالت محتفظة بدلالاتها القديمة، حيث كانت تغلف المعاني الجديدة بألفاظ مألوفة، لها في أذهان الناس ارتباطات انفعالية قوية.

وبذلك سيكون سبينوزا قد حقق هدفين مزدوجين:

- **أولهما**، أن لا يصل إلى فهم المعاني الجديدة لتعبيراته إلا القادرون ذهنيا على بلوغها.
- **ثانيهما**، أن يقدم أفكاره إلى السذج من الناس، في صورة ترضي عقولهم الضعيفة، ولا تنطوي على تحد أو استفزاز لمشاعرهم[2].

---

[1]- عبد الرحمن بدوي، سبينوزا، مؤسسة هنداوي سي أ سي،2018، ص ص44-45.

[2]- عبد المنعم الحفني، موسوعة فلاسفة ومتصوفة اليهودية، مكتبة مدبولي، مصر،1994، ص129.

3/- من أجل تأسيس علمي للأخلاق:

اهتم سبينوزا بالعلم ويظهر هذا الاهتمام في أغلب كتاباته ورسائله، وهذا الاهتمام فرضته المتطلبات العلمية والثقافية لعصره، أي القرن 17م. وقد شكل العلم عنده احدى الركائز الأساسية في الثالوث الإتيقي. وهذا الاهتمام تجلى بوضوح في مختلف كتابات سبينوزا، فخطابه الفلسفي يعتمد نموذجا رياضيا هندسيا، ليس في كتاب "الإتيقا"[1] فقط بل في معظم كتاباته، إلا أن التعبير النهائي عن فلسفته هو كتابه " علم الأخلاق" وفيه يعلن سبينوزا نظاما فلسفيا كليا يسير في موازاة هندسة أقليدس. فالتعريفات مدرجة، والبديهيات موضوعة، ثمّ هناك العدد الكبير من "القضايا" و "الاستنتاجات" المبرهن عليها، بالتفكير الذي يسوغه في كل مرحلة أنه ينجم بطريقة دقيقة كتدرجة عن التعريفات والبديهيات." والهدف من هذا المنهج هو تأسيس الأخلاق على أساس علمي شامل.

لذا اصطنع سبينوزا في كتاب علم الأخلاق منهج الرياضيين في الهندسة، ولقد جاء كتابه أشبه بكتب علماء الهندسة منه بكتب الفلاسفة.، أراد تأسيس الأخلاق الهندسية، وهوما يتضح من طرحه حينما يصرح قائلا: "إنني سأكتب الأخلاق الهندسية، وكأنني أكتب عن الخطوط والسطوح والاجسام المادة، وقد حرصت على أن لا أسخر وألعن أو أكره الأعمال البشرية بل أفهمها. ولذلك نظرت إلى العواصف... لا باعتبارها رذائل وشرورا في الطبيعة البشرية، ولكن بوصفها خواص لازمة كتلازم الحرارة والبرودة والعواصف والرعد وما شبهها لطبيعة الجو"[2].

يبدأ سبينوزا في كتابه الأخلاق بقائمة من التعريفات وبديهيات ومصادرات وقضايا وبراهين وحواشي واللوازم، ثم يبرهن عليها بطرق رياضية ومنطقية. فيوظف مثلا البرهان بالخلف لتأكيد الكثير من الأفكار. ومثال ذلك ما نجده من خلال هذه القضية:

---

[1]- زيد عباس كريم، سبينوزا الفلسفة الأخلاقية، دار التنوير للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 2008، ص99.

[2]- ول ديورانت، قصة الفلسفة، ترجمة فتح الله محمد المشعشع، مكتبة المعارف، بيروت، ط6، 1988، ص ص 223-224.

" **القضية 5**

لا يمكن أن يوجد في الطبيعة جوهران أو عدة جواهر من طبيعة واحدة أو صفة واحدة.

البرهان

لو وجدت عدة جواهر متميزة بعضها عن بعض، لكان تميزها إما بتنوع الصفات أو بتنوع الأعراض(القضية السابقة).وإذا كان تميزها بتنوع الصفات فحسب، فإننا سنسلم إذا بانه لا يوجد غير جوهر واحد للصفة الواحدة وغذا كان تميزها بتنوع الأعراض، فبما ان الجوهر(القضية1) متقدم بالطبع على أعراضه، فإننا لا نستطيع، غن نحن أبعدنا الأعراض واعتبرنا الجوهر في ذاته، أي (التعريف 3 والبديهية 6) من منظور الحقيقة، أن نتصوره متميزا عن جوهر أخر، بمعنى أنه(القضية السابقة) لن يتسنى وجود جواهر متعددة، وإنما يوجد جوهر واحد"[1].

ولنأخذ المثال الموجود في القضية الاحدى عشر من الباب الأول:

" **القضية 11**

الله– أعني جوهرا يتألف من عدد لا محدود من الصفات المعبرة كل واحدة عن ماهية أزلية ولا متناهية – واجب الوجود

البرهان

[1] باروخ سبينوزا، علم الأخلاق، ترجمة جلال الدين سعيد، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، 2009، ص ص 34-35.

إذا نفيتم ذلك فتصوروا، لو أمكنكم، ان الله غير موجود. إن ماهيته (البديهية7) لا تنطوي إذا على وجوده، بيد أن ذلك (القضية7) محال، إذا فالله واجب الوجود"[1].

يستنبط سبينوزا خصائص الله وصفاته بالطريقة نفسها التي نستخلص فيها الخصائص الهندسية للمثلثات، كقولنا في نظرية فيثاغورس ، إذا كان المثلث أ ب ج قائم فإن مربع المتر يساوي مجموع مربعي طولي الضلعين الآخرين. ولقد عمم سبينوزا المنهج الهندسي ليدرس كل شيء بمنظار رياضي حتى عالم الانفعالات والمشاعر يعالجها بالطريقة نفسها التي نتعامل فيها مع الأشكال الهندسية، كالخط، والمثلث، والمربع. بصدد ذلك يقول في مقدمة القسم الثالث لكتاب "الأخلاق": " إن معظم الذين كتبوا عن الانفعالات وعن سلوك الإنسان في الحياة يبدو كأنهم يعالجون أمورا خارجة عن الطبيعة، لا أمورا تسير وفقا لقوانين الطبيعة العامة، بل يبدو أنهم يتصورون الإنسان في الطبيعة كما لو كان دولة داخل دولة. وفعلا، إنهم يعتقدون أن الإنسان يخل بنظام الطبيعة اكثر مما ينساق له، وأن له سلطانا مطلقا على أفعاله الخاصة ولا يخضع إلا لنفسه(...) وسأنظر إلى الافعال والشهوات الإنسانية كما لو كان الأمر يتعلق بخطوط وسطوح وجوامد"[2].

فهذا المنهج يثبت أن الانفعالات لا تألف كيانا قائما على حدة، بل تخضع للضرورة الطبيعية وللسببية المطلقة؛ فهي أشياء طبيعية تابعة للطبيعة، وعلى مقتضى هذه القوانين الطبيعة ينتج كل شيء وينتقل من شكل إلى آخر، فالحل الوحيد لفهم الأشياء الطبيعية هو جعل القواعد والقوانين الكلية القائمة في الطبيعة.

فتطبيق المنهج الهندسي على الانفعالات وجعلها أمورا طبيعية كسائر الأشياء الطبيعية، يمثل إذن أحد اختلافات اسبينوزا وتميزه عن أسلافه. وبهذا المنهج يكون قد ابتعد عن كل موعظة أخلاقية، وتجنب اصدار أحكام قيمة على أفعال الإنسان، فهمه الوحيد هو الفهم؛

---

[1]– باروخ سبينوزا، علم الأخلاق مرجع سابق، ص 40.

[2]– المرجع نفسه، ص ص146–147.

فهم أصل الانفعالات وطبيعتها. وبهذا يكون سبينوزا قد كسر الإطار الكلاسيكي المشكل للخطاب حول الانفعالات. ونجد هذا المنهج الهندسي في كتابه "الأخلاق" في الباب الثالث، في أصل الانفعالات وطبيعتها:

القضية 24

إذا تخيلنا أن شخصا ما يفرح شيئا نكرهه، شعرنا نحو هذا الشخص بالكراهية، وعلى العك، إذا تخيلنا أنه يحزنه، شعرنا نحوه بالحب.

البرهان

لا يختلف برهان هذه القضية عن برهان القضبة 22* السابقة.

الحاشية

تعود انفعالات الكره هذه وما شابهها إلى الحسد الذي لا يعدو أن يكون إلا الكراهية ذاتها باعتبارها تهيئ الإنسان لكي يبتهج لما يصيب غيره من سوء وبحزن لما يلحقه من خير1".

هكذا، يستفيد سبينوزا من المنهج الهندسي في محاولته تأسيس الاخلاق على قواعد علمية، لذا جاءت أفكارا ثورية غير مسبوقة بأسلوب يقلل من غرابتها حيث كانت تبدو للوهلة الأولى شاذة مخالفة كل ما كان متعارفا عليه في المذاهب السابقة، إلا أن النية الدفينة عند سبينوزا من وراء استخدامه للمنهج الهندسي هو الاقتراب من الموضوعية، والحقيقة، والابتعاد عن الذاتية وتأسيس الفلسفة كممارسة عقلية صارمة. لذا عمل على مناقشة القضايا والمشكلات الفلسفية الداخلة في دائرة اهتمامه، والتي كانت تشكل هاجسا كبيرا وملحا لديه،

---

*برهان القضية 22: " إن من تفرح الشيء الذي نحب أو يحزنه، يفرحنا أيضا أو يحزننا، ذلك أننا نتخيل الشيء الذي نحب متأثرا بذلك الفرح أو الحزن(القضية السابقة). ولما كنا نفترض أن ذلك الفرح أو الحزن أو يقترن بفكرة علة خارجية، فكلما(حاشية القضية15) تخيلنا أن شخصا ما يفرح الشيئ الذي نحب أو يحزنه، شعرنا نحو هذا الشخص بالحب أو الكره. أنظر اكثر:

باروخ سبينوزا، علم الأخلاق، ترجمة جلال الدين سعيد، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، لبنان، 2009، ص169.

[1]- باروخ سبينوزا، علم الأخلاق، مرجع سابق، ص171.

فقضى معظم وقته في التفكير فيها وتخليلها والكتابة عنها، على الرغم من كل العوائق، التي كانت تقف عند الآراء الجريئة والمتحررة.

.